عبد النبي اصطيف

نقد «صراع الحضارات»

نحن والغرب: من «صدام الحضارات» إلى «الشراكة المعرفيّة»

تقديم

ثمة ما يُشْبه الإجماعَ بين مختلف دارسي علاقة الشرق بالغرب على أنَّها علاقة إشكالية. ففضلاً عن كونها مُثْقلةً بتركة تاريخيَّة طويلة من الصراعات والمواجهات تمتدّ أكثر من ألفيْ عام، فإنَّها تنطوي على أبعادٍ أيديولوجيَّة تتصل بالفكر والدين والتصوُّرات الكبرى في الحياة الإنسانيَّة، وترتبط على نحو دقيق بمصالح دنيوية آنية ومستقبلية، وتَخْضع لرؤى مستقبليَّة متباينة تخفي الكثير من مواقفِ كلِّ طرفٍ في هذه العلاقة إزاء الطرف الآخر.

ومع التحوُّل الخطير الذي شهده عالمُنا المعاصر من عالم القطبيْن المتكافئيْن الذي ضَمِنَ حداً أدنى من التوازن في العلاقات الدولية على جميع المستويات، إلى عالم القطب الواحد الذي بات يُغري بمواجهة «الآخر» ما دامت ستنتهي بهزيمته واحتوائه وتدجينه والتحكم بمقدراته ومصائره، يَطرح بعضُ المفكّرين الغربيِّين ولاسيما في الولايات المتحدة الأميركية مفهومَ «صدام الحضارات» مبدأً يحكم التطوُّرات المستقبلية التي يرغبون في تحققها وتحويلها إلى واقع يعزّز الهيمنة الأميركية على العالم وأمركته. وعلى الرغم مما يعتور هذا المفهومَ من مغالطات نظريَّة، وما ينطوي عليه من تجاهلٍ فجٍّ لحقائق التاريخ الإنسانيّ، فإنَّه يَظْفر برواج مُغْرِض في دوائر صنع القرار في الغرب ـ وبخاصةٍ في واشنطن: فواشنطن ترغب في أن يسود العالَمَ مناخٌ من المواجهات والصراعات، تؤدي فيه دورَ الحَكَم والمقرِّر، وتفيد من حسم هذه الصراعات والمواجهات بحلِّها بطريقتها الخاصة. وهو حَلٌّ يَكْفل مصالحها الدنيويَّة، ويحقِّق مراميها القريبة والبعيدة، ويَفْرض في نهاية المطاف قيمَها التي تسوِّغ سيادتَها وهيمنتَها على سائر العالم.

بين الشرق والغرب: إشكالية مركّبة

ليست علاقة الشرق بالغرب مجرَّد علاقةٍ جغرافيَّةٍ بين كيانيْن يَحدَّان بعضُهما بعضاً، ويحدِّدان هويةَ بعضهما بعضاً. وليست المسألة أنّ رقعةً معيَّنةً من الأرض تقع إلى الشرق من رقعة أخرى، وأنّ هذه الأخرى تقع إلى الغرب من الأولى؛ فكل رقعةٍ لها شرقُها مثلما لها غربُها، والأمر يتوقف في نهاية المطاف على المركز الذي نبدأ منه في الحديث عن شرقٍ وغربٍ. وإذا كان البعضُ يميل اليوم إلى استعمال «الشرق» ليشير به إلى العالم الذي يقع إلى الشرق من أوروبا الغربيَّة بصرف

كل الثقافات مولدة وحصيلةُ تلاقحٍ مع الآخر، أكثر مما هي ناجمة عن عبقريَّة خالصة صافية

النظر عما ينطوي عليه هذا التعميمُ من طمسٍ للغنى والتنوُّع الذي نجده في هذا الشرق، ويميل إلى استعمال «الغرب» ليشير أساساً إلى «العالم المتقدِّم» أو «العالم الأول» أو «أوروبا الغربيَّة وشمالي أميركا» مضافاً إليهما «اليابان»،... فإنَّ هذه القسمة في الواقع قسمةٌ أنطولوجيَّةٌ، جغرافيَّة ـ سياسيَّة، فكريَّة ـ أيديولوجيَّة، بل ومعرفيَّةٌ تقوم على شرخٍ في التفكير لا يستطيع أن يرى الكونَ إلا من خلال أضدادٍ مزدوَجة يحدِّد كلُّ ضدٍ فيها الآخرَ ويمنحه هويَّتَه. فثمَّة كثرةٌ كاثرةٌ من الغرب بعدد كيانات الغرب السياسيَّة والقوميَّة والإثنيَّة والثقافيَّة، وثمَّة أعداد عديدة من الشرق بعدد كياناته كذلك. ومعنى هذا أنَّ التعميم على هذا النحو الذي يَقْسم العالَمَ هذه القسمةَ تعميمٌ عابثٌ لا طائل منه، وينطوي على الكثير من المفارقات والمغالطات.

ولكنَّ الحقيقة المؤسفة كذلك هي أنّ هذه القسمة رائجةٌ شائعةٌ مقبولةٌ إلى درجةِ اعتبارها مسلَّمةً لا يأتيها الباطلُ مِنْ بين يديها ولا مِنْ خلفها. وربما كان وراء هذا الشيوع أسبابٌ ومُسوِّغاتٌ أهمُّها أنَّها علاقةٌ تضرب جذورها في التاريخ القديم، إذ يردُّها بعضُهم إلى أيَّام الإسكندر المقدونيّ وما تلاها من مواجهات متعاقبة بين الفرس والروم، وبين العرب والروم، وبين التركمان والبيزنطيين، وبين العرب والحملات الصليبيَّة، وبين العرب والأوروبيِّين في الأندلس وصقلية، وبين العثمانيين والأوروبيين في جنوبيّ أوروبا، ثم ما شهده القرنان الأخيران من مواجهةٍ كادت أن تكون شاملة لكلّ مناحي الحياة بين الغرب المستعمِر والوطنِ العربيّ الذي لا يكاد يُحقِّق فكّ الارتباط في مواجهةٍ حتى ينشغل بمواجهةٍ جديدة.

ولكنّ هذه العلاقة ليست علاقة عريقة وحسب، بل إنَّها كذلك تنطوي على أبعاد أيديولوجيَّة هي مزيجٌ من الدين والفكر، ولاسيما بعد استحواذ الغرب للديانة المسيحيَّة ومِنْ قَبْلِها اليهوديَّة واعتبارِهِ إيَّاهما ديانتيْن غربيَّتيْن في مقابل الإسلام الذي عدّه الغربُ ديانةً شرقيَّة تريد أن تمتدّ وتنتشر على حساب الغرب الذي يحاول بدوره أن يحتويَها ويحصرَها في رقعة محدودة. ولكنّ المفارقة اليوم هي أنَّ الإسلام بات ينتشر في الغرب، و«الخوف» كلّ الخوفُ أن تتحوَّل «دارُ الحرب» الأوروبيَّة إلى «دار إسلام» كما كان الحال عليه في أجزاء من أوروبا في العصور الوسطى.

وفضلاً عمّا تقدَّم، فإنَّ هذه القسمة الثنائيَّة للعالم مرتبطةٌ أوثقَ الارتباط بمصالح دنيوية آنيَّةٍ ومستقبليَّةٍ يرى فيها الغربُ مصالحَ حيويَّةً يشكِّل أيُّ تهديد لها تهديداً للمصالح الأمنية القوميَّة، التي تُستنفَرُ من أجل الحفاظ عليها جميعُ الطاقات ويُسوَّغُ من أجل ضمانها استخدامُ أحدثِ القدرات العسكريَّة وأكثرِها تطوُّراً (كما حدث في حرب الخليج الثانية). ذلك أنّ المهم هو الحفاظ على هذه القسمة بين عالم غربيٍّ يمتلك المعرفةَ والقوةَ ويتمتع بدرجاتٍ مرتفعة من الرفاهِية والكفاية، وعالمٍ آخر شرقيٍّ يمتلك الطاقةَ والموادَّ الأوليَّة واليدَ العاملةَ الرخيصة والسوقَ الواسعة ـ على أن يتسنَّمَ الأولُ في هذه العلاقة موقعَ السيّد المتحكِّم المقرِّر الآمرِ الناهي، ويرضى الثاني منها بموقع التابع والمنضوي والثانويّ والمنصاع.

ومعنى هذا أنَّ على هذه القسمة أن تبقى، ولاسيَّما بعد التحوُّل الذي شهده عالَمُنا المعاصِرُ: من عالم القوتين العظمييْن، إلى عالم القوة العظمى الوحيدة التي تقود قوى إقليميَّةً وتوجِّهها وتعبِّئها مستعينةً بالأمم المتحدة لفرضِ ما تريده من وقائع تَخْدم مصالحَ أمنها القوميّ.

مناخ الصدام والمواجهة

ولكنْ كيف يمكن للغرب أن يروِّج لهذه القسمة في زمنٍ زال فيه الخطرُ الشيوعيُّ المتمثِّل بالاتحاد السوفياتيّ ودولِ حلفِ وارسو؟ ومَنْ يجرؤ اليومَ على تحدي إرادة الغرب السياسيَّة والاقتصاديَّة أو العسكريَّة دون أن يَدْفع ثمناً باهظاً لهذا التحدِّي ثم ينصاع في نهاية المطاف لهذه الإرادة؟

لا بدَّ، إذن، من خلق خصم جديدٍ للغرب يستطيع أن يُوَجِّه قواه لاحتوائه وإخضاعه. ولا بدّ من افتعال صراعٍ جديدٍ مع الآخر لتوريطه في نزاع يعزِّز مناخَ المواجهة، مادامت حصيلتها مُطَمْئِنَة: وهي انتصار الأقوى سياسيّاً واقتصاديّاً وعسكريّاً ومعرفيّاً، أي الغرب.

يكتب صموئيل هنتنغتون عن الغرب واضِعاً إيَّاه قُبالة سائر العالم قائلاً: «الغربُ اليومَ في ذروة قوةٍ غير عاديَّةٍ بالنسبة إلى الحضارات الأخرى. فخصمُهُ القوةُ العظمى قد اختفى من الخارطة، والصراعُ العسكريُّ بين الدول الغربيَّة غيرُ وارد، والقوةُ العسكريَّة الغربيَّة لا تُجارَى. وباستثناء اليابان فإنَّ الغرب لا يواجِه أيَّ تحدٍّ اقتصاديّ. وهو يهيمن على المؤسسات السياسيَّة والأمنيَّة الدوليَّة، ويهيمِنُ مع اليابان على المؤسسات الاقتصاديَّة الدوليَّة. إنَّ المسائل السياسيَّة العالميَّة تُحَلُّ فعلياً من قبل مجلس إدارة من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، وإنَّ المسائلَ الاقتصاديَّة العالميَّة تُحَلُّ من قبل مجلس إدارة من الولايات المتحدة وألمانيا واليابان. وجميع البلدان تحتفظ بعلاقاتٍ متينةٍ متانةً غيرَ عاديَّةٍ فيما بينها، مستبعِدةً الأقطارَ الأقلَّ شأناً والأقطارَ غيرَ الغربية. إنَّ القرارات المصنوعة في مجلس الأمن في الأمم المتحدة، أو في صندوق النقد الدوليّ، تَعْكس مصالحَ الغرب، وتُقدَّم إلى العالم على أنها تعكس رغباتِ المجتمع الدوليّ. وعبارة' المجتمع الدوليُّ غَدَت اسماً جمعياً ملطَّفاً (في مكان «العالم الحرّ») لمنح الشرعية العالميَّة لأعمالٍ تعكس مصالح الولايات المتحدة والقوى الغربيَّة الأخرى. ومن خلال صندوق النقد الدوليّ والمؤسسات الاقتصاديَّة الدوليَّة الأخرى، يروِّج الغربُ لمصالحه الاقتصاديَّة ويَفْرض على الأمم الأخرى السياساتِ

الاقتصاديَّة التي يعتقد أنَّها ملائمة لذلك»[1]. وباختصار شديد، وبوضوح أشدّ، يمكن للمرء أن يتبين بسهولة «أنّ الغرب في الواقع يستخدم المؤسساتِ الدوليَّة، والقوةَ العسكريَّة، والمواردَ الاقتصاديَّة، ليدير العالم على نحوٍ يَحفظ الهيمنةَ الغربيَّة، ويحمي المصالح الغربيَّة، ويروِّج القيم السياسيَّة والاقتصاديَّة الغربيَّة»[2].

وهذا الوضع القائم وضعٌ مثاليّ بالنسبة إلى الغرب لأنَّه يَكْفل له الحفاظَ على الهيمنة على مقرّرات العالم، بل الكون، من خلال «النظام العالميّ الجديد» الذي هو ـ بحقّ ـ نوعٌ متطوِّرٌ جداً من الإمبريالية الجديدة ذاتِ الجدوى الاقتصاديَّة الواضحة. ومن أجل المحافظة عليه لا بدّ من ترسيخ فكرةِ تميُّزِ الغرب عن سائر العالم، وبالتالي تسويغ هيمنته وموقعه وأفعاله فيه. ولا بدّ كذلك من افتعال صراعٍ مع أيِّ مصدر خطرٍ يمكن أن يشكِّكَ في تميُّز هذا الغرب أو في تَفوُّقه. ومادام الخطرُ العسكريُّ قد زال بزوال الاتحاد السوفياتيّ ودولِ الكتلة الشرقيَّة التي انضوى معظمُها الآن تحت لواء حلف الأطلسي، ومادام الخطرُ الاقتصاديُّ المتمثِّل بالنمور الآسيويَّة قد تمَّ احتواؤه، فلا بدّ من التفكير بخطرٍ آخر، وليكن هذا الخطرُ هو الخطرَ الحضاريَّ المتمثِّل بالحضارات الأخرى التي تَحْمل قيماً أخرى مباينةً لقيم ما يسمَّى بالحضارة الغربيَّة. وليكن العصرُ القادمُ عصرَ «صدام الحضارات» وفيه يحلّ ـ محلَّ الصراع الثنائيّ القطب الذي ساد في الفترة التي تلت انتهاء الحرب العالميَّة الثانيَّة ـ صراعٌ من لونٍ جديدٍ هو صراعٌ متعدِّدُ الأقطاب، «صراعٌ بين جماعات تنتمي إلى حضارات مختلفة»[3]. وهكذا تأتي فرضيةُ صموئيل هنتنغتون التي أعلنها بدايةً في مقالته المشهورة «صدام الحضارات» التي نَشَرها في صيف عام ١٩٩٣ في مجلة Foreign Affairs، ثم ما لبث أن وسَّعها وأخرجها في كتابٍ حمل عنوان: **صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالميّ الجديد** عام ١٩٩٦[4]. وخلاصة هذه النظريَّة هي: «أنَّ المصدر الأساسي للصراع في هذا العالم الجديد لن يكون بشكلٍ رئيسيٍّ أيديولوجيّاً أو اقتصاديّاً. وستكون التقسيماتُ الكبرى ضمن النوع البشريّ ومصدر الصراع المهيمن ثقافيةً. وستظل الدول ـ القوميَّة اللاعبين الأكثر قوةً في الشؤون العالميَّة. ولكنّ الصراعات الرئيسية للسياسة العالميَّة ستحدث بين أمم وجماعات ذاتِ حضاراتٍ مختلفة، وسيهيمن صدامُ الحضارات على السياسة العالميَّة. وستكون خطوطُ الصدع بين الحضارات خطوطَ المعركة في المستقبل»[5]. ومعنى هذا «أنَّ الصراع بين الحضارات سيكون الطورَ الأخيرَ في تطوُّر الصراع في العالم الحديث»[6].

إذن لا بدّ من استمرار الصراع بين الأمم والشعوب، ولا بدّ من أن يكون هناك باستمرارٍ منتصرٌ ومنهزمٌ، سيِّدٌ ومَسُودٌ، حاكِمٌ ومحكومٌ، مستغِلٌّ يستأثر بكل شيءٍ ومستغَلٌّ يعيش على الفتات. لا بُدَّ أن يكون هناك «غربٌ متميِّز» يُقابل «سائر العالم» ذا الحضارات المتنوِّعة ولكن المختلفة عن الغرب والمباينة له. وبهذا المعنى يبدو كتاب هنتنغتون وكأنَّه دعوةٌ إلى «تعبئة العدد الأكبر من جماهير الدول الأوروبيَّة والأميركيَّة [التي تمثِّل الغربَ في نظره وتنضوي تحت لواء حضارته المتميِّزة] وإثارةِ حماستهم في الانخراط في حروبٍ كولونياليَّةٍ جديدة، بنفس الشعارات والمبرِّرات التي استُخدمتْ في الحروب الصليبيَّة في العصور الوسطى، ولتكون بديلاً جديداً عن العدو القديم ـ إمبراطوريَّةِ الشرّ الشيوعيَّة ـ الذي انتهى مفعولُه كمِلاطٍ أو غراءٍ يضمّ جماهير البسطاء المقهورين في بلدان الغرب، إلى موقفٍ موحدٍ يخدم أصحاب الاحتكارات»[7]. بل إنَّه في حقيقة الأمر دعوة إلى التشبُّث «بالخصومة بين البشر حتى يَفرغ أصحابُ المصالح لشؤونهم، وإدارة العالم الممزق. ونظرتُه في 'الصدام الحضاري' ليست أكثر من ثوبٍ قشيبٍ لفكرةٍ أو ممارسةٍ عتيقة جداً هي: فَرِّقْ تَسُدْ»[8].

وواقع الحال أن كتاب **صدام الحضارات** بما ينطوي عليه من تكريسٍ لمناخ الصراع والمجابهة بين الأمم والشعوب، ولاسيَّما تلك التي يرى فيها خطراً ما على «الأنموذج الغربيّ» المزعوم، يثير تساؤلات وإشكالاتٍ لا نهاية لها، تشير جميعها إلى جوانب مختلفةٍ من الخلل الذي بات يعتور التفكير الغربيَّ في تدبّره لعالمنا المعاصر.

عبقرية الحضارة الغربيَّة بين الأسطورة والحقيقة

ولكنّ السؤال الأكبر الذي ينبغي لصاحب مفهوم «صدام الحضارات» أن يواجهه هو: هل ثمة حضارة قوميَّة أو إقليميَّة أو قاريَّة أو جهويَّة صرف، نقيَّةٌ، صافيةٌ لا تداخلها شائبةٌ من الحضارات الأخرى؟

ولنأخذْ ما يدافع عنه صموئيل هنتنغتون نفسُه وهو «الحضارة الغربيَّة»، التي يرى أنَّ عليها أن تدافع عن نفسها في مواجهة الحضارات الأخرى، وأنَّ عليها أن تسودَ وتهيْمِنَ في عالم الألف الثالثة على سائر الحضارات الأخرى، ولننظرْ في ما «يميِّزها» ولاسيما في صفتها الغربيَّة.

يشير هنتنغتون إلى جملةٍ من السمات الفارقة للغرب تميِّزه عما عداه من الكيانات القارية، فيَذْكر ثماني منها هي: ١) التراث الكلاسيكيّ من الإغريق والرومان؛ ٢) المسيحيَّة الغربيَّة الكاثوليكيَّة والبروتستانتيَّة؛ ٣) اللغات الأوروبيَّة؛ ٤) الفصل بين السلطتيْن الروحيَّة والزمنيَّة، أو بين الدين والدولة؛ ٥) حُكْم القانون؛ ٦) التعدُّديَّة الاجتماعيَّة والمجتمع المدنيّ؛ ٧) الهيئات

---

١ ـ ٢ ـ Samuel P. Huntington: "The Clash of Civilisations," in Foreign Affairs, Vol. 72, No. 3, Summer 1993, p. 39, 40.

٣ ـ المصدر السابق، ص ٢٢.

٤ ـ Samuel P. Huntington: The Clash of Civilisations and the Remaking of World Order, Simon and Schuster, New York, 1996. وقد تُرجم إلى العربيَّة بعد عامين؛ انظر: صاموئيل هنتنغتون: **صدام الحضارات... إعادة صنع النظام العالميّ**، ترجمة: طلعت الشايب، تقديم د. صلاح قنصوه، دار سطور، القاهرة، ١٩٩٨.

٥ ـ ٦ ـ انظر مقالة هنتنغتون: «صدام الحضارات» (بالإنكليزيَّة)، ص ٢٢.

٧ ـ ٨ ـ انظر د. صلاح قنصوه «مقدمة الكتاب: من أجل تأمل فاحص وحوار خصيب» في: صاموئيل هنتنغتون: **صدام الحضارات.. إعادة صنع النظام العالميّ**، ص ٢٤ ـ ٢٥، ٢٥.

ندعو إلى شراكة معرفيَّة بين منتجي المعرفة والعلم في الشرق والغرب والجنوب والشمال

التمثيليَّة؛ ٨) النزعة الفرديَّة. ويقول إنَّه على الرغم من وجودها منفردةً في هذه الحضارة أو تلك، فإنَّ «اتحادها معاً في توليفةٍ أو مركَّبٍ هو الذي أتاح للغرب تفرُّدَه بها»[١].

والناظر في هذه السمات وفي الملاحظات العديدة التي أبداها مناقشوه عليها لا يَسَعه إلا أن يؤيِّد ما ذهب إليه مُقَدِّم ترجمة كتاب هنتنغتون إلى العربيَّة الدكتور صلاح قنصوه، من أنّ هذه السمات أو الملامح التي زَعَمَ هنتنغتون أنَّها ميَّزتِ الغربَ حتى قبل عمليَّة التحديث التي شهدها في فترة النهوض الرأسمالي: «تنتسب جميعاً إلى مرحلة تاريخيَّة هي عصر النهضة وما تلاه وهو الذي كان محصّلةً لتفاعلاتٍ وتبادلاتٍ وصراعاتٍ داميةٍ بين الامبراطورية الإسلاميَّة في الشرق عبر البحر المتوسط، والدويلاتِ العربيَّةِ في الغرب على حدود فرنسا من جهة، والإمبراطوريَّةِ الرومانيَّة المقدَّسة، وما انفرط عنها من إمارات وممالك متنافرةٍ من جهة أخرى. ولم يبدأ الشعور بما يسمَّى' الغرب' إلاّ بعد فترة طويلة من ازدهار النظام الرأسماليّ، وما أدّى إليه من استعمار الشرق»[٢].

وفضلاً عمَّا تقدَّم فإنَّ ما يسمَّى بـ «الحضارة الغربيَّة» مدينةٌ في ماضيها البعيد وعصورها المختلفة (القديم، والوسيط، وما قبل الحديث، والحديث) للحضارات الأخرى، ولاسيما الحضارات الشرقيَّة بالكثير الكثير. وهو ما يَجْعل من «عبقريَّتها» المزعومة الناجمة عن «قدراتها الذاتيَّة» التي تفوَّقتْ بها على الحضارات الأخرى خرافةً يَصْعب قبولُها في عصر العلم والحقائق والوقائع. وما يسمَّى عادةً بالمكوِّنات الأساسيَّة للحضارة الغربيَّة وهي:

- المكوِّن الكلاسيّ، أو الموروث اليونانيّ والرومانيّ؛
- والمكوِّن الدينيّ، اليهوديّ، المسيحيّ؛
- والمكوِّن التاريخيّ، والمتمثِّل بتجربة الأمم والشعوب الأوروبيَّة الحياتيَّة في أيام السلم والحرب؛

...أقول إنَّ هذه المكوِّنات ليست في الحقيقة بمنأًى عن تأثيرات الحضارات الأخرى. بل إنّ حضور الشرق فيها، ولاسيَّما الشرق الأدنى قديماً، والشرق العربيّ لاحقاً، حضورٌ صارخٌ يَصْعب معه التجاهلُ والإنكارُ والتكتُّم سبلاً واقعية لإخفائه.

وها هم الباحثون الغربيُّون أنفسُهم يُقرّون بدَيْنِ حضاراتهم لهذا الشرق. وحَسْبُ المرء أن يشير في هذا المقام إلى كتابَيْ ڤالتر بيركِرتْ: **الثورة المُشَرْقِنَة: الأثرُ الشرق ـ أدنويّ في الثقافة اليونانيَّة في العصر البدائيّ الأول**[٣]، ومارتن برنال: **أثينا السوداء: الجذور الأفروآسيويَّة للحضارة الكلاسيَّة**[٤] اللذيْن صدرا في العقد الأخير من القرن العشرين.

فأما الأول منهما فيبيِّن فيه المؤلِّفُ بُطْلانَ ما يسمَّى عادةً بالمعجزة اليونانيَّة الناجمة عن العبقريَّة الخاصة بها. لقد صُوِّرت الثقافةُ الرائعةُ لليونانيِّين القدماء في الغالب وكأنَّها معجزة انبثقتْ عن عبقريَّةٍ خاصةٍ بهم، وأنَّها ليست مدينةً عمليّاً بأيّ شيءٍ لجيرانها. ولكنّ رأياً مشوَّهاً لا يصمد في وجه محاجَّة بيركرت الحاسمة التي تعيد الأمور إلى نصابها، وتُوضح أنَّ الثقافة اليونانيَّة قد بدأتِ ازدهارَها الفريدَ في ظل تأثير الشرق الساميّ (نسبة إلى الساميِّين)، وأنَّها مدينةٌ بموقعها الذي تسنّمتْه لاحقاً في شرقيّ المتوسط لأولئك الكتّاب والحرفيِّين والتجّار والعلماء الشرقيِّين الذي قدّموا لها الكثير، وأنَّ ما يسمَّى بالمعجزة اليونانيَّة قد نَجَمَ أساساً عن انفتاح الثقافة اليونانيَّة على الثقافات المجاورة ولاسيما الثقافة الشرقيَّة.

وأما الثاني منهما فيبيِّن مارتن برنال فيه جذورَ الحضارة الكلاسية، ويَردّها إلى الأصول الأفرو ـ آسيوية، ويعني بها على وجه التحديد: حضاراتِ بلاد النيل والشام والرافديْن التي حُجبتْ، وبشكلٍ منظَّمٍ، منذ القرن الثامن عشر بدواعٍ عرقيَّةٍ عنصريَّةٍ.

هذا عن العصر البدائي والقديم[٥]. وأما العصور الوسطى فإنَّ الدَّيْنَ الأوروبيّ فيها للحضارة العربيَّة الإسلاميَّة لا يكاد يماري فيه أحدٌ اليومَ. يكتب إ. ل. رانيلا في مؤلَّفه الذي تُرجم مؤخَّراً إلى العربيَّة تحت عنوان: **الماضي المشترك: أصول الآداب الشعبيَّة الغربيَّة** ما يلي: «إنَّ الجانب الأكبر من المعارف الإغريقيَّة التي تضمَّنت العلمَ والفلسفةَ وَصَلنا عن طريق البيزنطيِّين من خلال الترجمة العربيَّة عن الإغريقيَّة. وقد نمَّى العربُ هذه المعارف، وانتقلتْ عنهم في العصور الوسطى إلى اللغة اللاتينيَّة. لقد كانت إسبانيا وصقلية جِسْرين للمشروعات الضخمة للترجمة في القرن الثاني عشر التي انتقلتْ عبرها المعارفُ العلميَّةُ من العرب إلى غرب أوروبا، التي كانت آنذاك في مرحلةٍ بدائيَّةٍ»[٦].

---

١ ـ ٢ ـ المصدر السابق، ص ١١ ـ ١٢، ١٦

٣ ـ Walter Burkert: The Orientalizing Revolution: Near Eastern Influence on Greek Culture in the Early Archaic Age, Translated by Margaret E. Pinder and Walter Burkert, Harvard University Press, Cambridge, Ma., 1992.

٤ ـ Martin Bernal: Black Athena: The Afroasiatic Roots of Classical Civilization: Volume 1, The Fabrication of Ancient Greece 1785 - 1985, Vintage Books, London, 1991.

٥ ـ انظر على سبيل المثال كتاب: Munzer Muhammad: Babylonian Dimensions in Greek Mythology, Dar Tlas, Damascus, 1996.

٦ ـ أ.ل. رانيلا: **الماضي المشترك بين العرب والغرب**: **أصول الآداب الشعبيَّة الغربيَّة**، ترجمة: د. نبيلة إبراهيم، مراجعة د. فاطمة موسى، عالم المعرفة (الكويت)، العدد ٢٤١، كانون الثاني/يناير ١٩٩٩، ص ١١.

وأما عصر النهضة الأوروبيّ فالكلّ يُجْمع على أنه لولا الإسهام العربيّ ـ الإسلاميّ فيه لما كان وُجِد أصلاً. وذلك لأنه نهض على أساس من الحضارة العربيَّة ـ الإسلاميَّة التي أسهمتْ فيها جميعُ الأمم والشعوب التي انضوت تحت لوائها، واتخذت من العربيَّة لساناً لها تفكِّر به وتعبِّر وتتواصل فيما بينها وتدوِّن فيه معارفَها وعلومَها[1].

وعندما ننتقل إلى العصر الحديث الذي شهد تسنُّمَ الغرب ذروةَ سنام التقدُّم الصناعيّ والتقنيّ، وتمتُّعَه بمستويات من الرخاء والرفاهية ـ على حساب النهب الاستعماريّ في القرنيْن الماضييْن ـ، فقد نتوقع اكتفاءه بنفسه، وتوقُّفَه عن الاستعانة بالغير كما كان شأنه حتى مطالع عصر النهضة. ولكنّ الحقيقة والواقع يشيران إلى غير ذلك. وها هم الباحثون الغربيُّون أنفسُهم يشيرون إلى الدَّيْن المعرفيّ الذي يُخفيه بعضُ المفكرين الغربيِّين عن أنظار قرّائهم متسترين وراء تفوّقهم «بوصفهم غربيِّين» على سائر العالم. ومرةً ثانيةً يُمْكن المرءَ أن يكتفي بإشاراتٍ بَرْقية الى مؤلَّفين من مثل رينهارت ماي[2] الألمانيّ الذي يؤلِّف في **مصادر هيدغر المخبوءة: التأثيرات الآسيوية الشرقية في أعماله** (عام ١٩٨٩)؛ وهارولد كاورد[3] الأميركيّ الذي يكتب عن: **جاك ديريدا والفلسفة الهنديَّة** ويَكْشف فيه عن الدَّيْن الذي أخفاه ديريدا (ولاسيَّما فيما يتَّصل بآرائه في اللغة) عن قرّائه ومريديه؛ وغراهام پاركس[4] الذي يحرِّر كتاباً يَجْمع فيه جملة أبحاث تناقش علاقةَ نيتشه بالفكر الآسيويّ ويَحْمل عنوان: **نيتشه والفكر الآسيويّ**. ويمكن كذلك أن يَذْكر مؤلَّفاتٍ أخرى من مثل كتاب جاك غودي[5] ذي العنوان الموحي: **الشرق في الغرب** الذي يَكْشف فيه زيفَ دعوى فرادة الغرب وتفوُّقه حتى في الأمور الذي يرى فيها سرَّ تقدمه، عندما يبيِّن أنَّه مدين فيها للشرق؛ وكتاب فريد دالمير[6]: **ما وراء الاستشراق: مقالات في الحوار عبر الثقافات**؛ وكتاب ج.ج. كلارك[7]: **تنوير شرقيّ: الحوار ما بين الفكريْن الآسيويّ والغربيّ**؛ وغيرها من الكتب التي تؤكِّد أنْ ليس ثمة مِنْ ثقافةٍ صرفةٍ، وأنّ جميع الثقافات مولَّدة، وأنّ «عبقرية الغرب» المزعومة مجرد سراب.

ذلك أنّ الثقافات الإنسانيَّة (سواء أكانت ثقافات قوميَّة، أم قاريَّة، أم جهويَّة، قديمة أم حديثة)، ومهما أَغرقتْ في تفرُّدها وأصالتها، هي ثقافات مولَّدة، بالمعنى العربيّ للكلمة، كما استعملها عربُ العصر العباسيّ، وهي حصيلةُ تلاقحٍ وتفاعلٍ مع «الآخر» أكثر مما هي ناجمةٌ عن عبقريَّةٍ خالصةٍ صافيةٍ لم يداخلها عنصرٌ خارجيٌّ أجنبيٌّ عنها. ومعنى هذا أنّ أحداً لا يستطيع أن يزعم اليومَ أنّ ثقافةً ما، مهما كانت منزلتُها في نظر أصحابها، أو في نظر الآخرين، تستطيع أن تدَّعي لنفسها مكانةً متميِّزةً تستأثر بها دون سائر الثقافات، أو أن تَنْظر إلى نفسها نظرةَ السيِّد السامي وتَنْظر إلى غيرها نظرةَ العبد. ومعنى هذا أيضاً أنّ الثقافة الإنسانيَّة جهدٌ إنسانيٌّ مشترك تعاقبتْ عليه الأممُ والشعوبُ، كلٌّ في مرحلةٍ من مراحل نموّها وتطوّرها، وأنَّها لذلك بُحيْرةٌ مشتركة يَغْرف منها مَنْ يشاء، ويستقي منها مَنْ يريد، بوصفها الموروثَ الإنسانيَّ المشترك.

فإذا كان تميُّزُ «الحضارة الغربيَّة» مجردَ وهم، وإذا كانت «الثقافةُ الغربيَّةُ» ـ مثلها مثل غيرها من الثقافات الإنسانيَّة ـ ثقافةً مولَّدةً تَدين للآخر المتعدد زماناً ومكاناً وعرقاً وجنساً وديناً، فإنَّ من الأَوْلَى ألاّ يدعو مَنْ يغار عليه «بها» وعلى «قيمها الخاصة بها» إلى «صدام الحضارات»، بل ربما كان عليه أن يفكِّر في شيء آخر مختلفٍ تماماً عن آلية الصدام مُحَرِّكاً للمستقبل.

لقد كانت الحضارةُ الإنسانيَّةُ عبر العصور، وباختلاف الأمكنة والبقاع، وعلى تنوُّع صُنَّاعها، نتاجَ شراكةٍ إنسانيَّةٍ غيرِ مباشرةٍ، أَسهمتْ كلُّ أمةٍ أو شعبٍ فيها بمقدار، إلى أن بلغتْ ما بلغتْه في عصرنا الحاضر. ولذا فإنَّ من الطبيعي أن نعزِّز هذه الشراكة بأن نجعلها «شراكةً مباشرةً» واضحةً نخطِّط لها ونُعِدُّ وننفِّذ، كما نفعل في أنواع الشراكات الأخرى التي نروِّج لها اليومَ، من مثل «الشراكة الأوروبيَّة المتوسطيَّة» وغيرها. وبالتالي فإنّ علينا أن ندعو إلى شراكة معرفيَّة بين منتجي المعرفة والعلم في الشرق والغرب معاً، في الجنوب والشمال معاً، وفي كل أرجاء العالم؛ وأن ندعو بالمقدار نفسه إلى توظيفِ حصيلةِ هذه الشراكة وما تنتجه من معرفة وعلم في خدمة الإنسان، بصرف النظر عن جنسه ولونه ولغته ودينه وسنه؛ وأن نحارب مبدأ احتكار المعرفة تحت أيّ مظلةٍ يحتمي[8].

وبعبارة مختصرة، لنَصْدع بدعوةٍ جديدة:

ـ «لا، لصدام الحضارات»، و«نعم، للشراكة المعرفيَّة». □

دمشق

---

١ ـ انظر على سبيل المثال: The Arab Influence in Medieval Europe, Edited by D.A. Agius and Richard Hitchcock, Ithaca Press, Reading, 1994. وكذلك: ماريا روزا مونيكال: **الدور العربيّ في التاريخ الأدبيّ للقرون الوسطى (تراث منسيّ)**، ترجمة الدكتور صالح بين معيض الغامدي، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٩.

٢ ـ Reinhard May: Heidegger's Hidden Sources: East Asian Influences on his Work, Translated, with a complementary essay, by Graham Parkes, Routledge, London, 1996.

٣ ـ Harold Coward: Derrida and Indian Philosophy, State University of New York Press, New York, Albany, 1990.

٤ ـ Graham Parkes (ed): Nietzsche and Asian Thought, The University of Chicago Press, Chicago and London, 1991.

٥ ـ Jack Goody: The East in the West, Cambridge University Press, Cambridge, 1996.

٦ ـ Fred Dallmayr: Beyond Orientalism: Essays on Cross-Cultural Encounter, State University Of New York Press, New York, Albany, 1996.

٧ ـ J.J. Clark: Oriental Enlightenment: The Encounter between Asian and Western Thought, Routledge, London, 1997.

٨ ـ Abdul-Nabi Isstaif: "Why East and West Need Each Other" in For a Change (London), Vol. 12, No. 6, December/January 2000 (Guest Column).